



الحرية سلاحاً

لا ادري اي مهانة هي الاكبر، مشاهدتنا عاصمة عربية، واي عاصمة، تسقط في قبضة العسكر الاميركي ام تنبّنها متأخرين الى ان هذه العاصمة سقطت قيل ذلك بزمن ولم يبق منها الا الخيال؟ اي مأساة هي الافح، ان نكتشف بغداد في الأسر ام نكتشف انفسنا شركاء في أسرها المديد؟ واي جرح هو الابلق، ان نرى مدينة المنصور والرشيد والمأمون تهوي وسط فرح بعض من احفادهم، ام ان نسمي مدينة المنصور والرشيد والمأمون ما لم يعد سوى معسكر اعتقال سيّج صدام حسين برعب اهله؟ نكي عاصمة العباسيين، لكننا لم نعرف الحفاظ عليها حين لم نعبأ بان يعبث بها صدام حسين بحجة بعثها.

نكي الاستقلال المفقود، لكننا لم نعرف الحفاظ عليه حين لم نعبأ بأن يمرمغ صدام حسين واشباهه الاستقلال تحت اقدمهم. نكي نهاية عصر التحرر الوطني، لكننا لم نعبأ حين حول صدام حسين واشباهه التحرر اعتقالاً جماعياً.

لا ندم على صدام حسين، ولا على آله ونظامه، وهو الذي يتحمل، فوق مسؤولية الجرائم التي ارتكبها في حق مواطنيه، مسؤولية مجيء الاحتلال، وهو الذي لم يشبع من قهر ناسه حتى جعل من تفكيك نصبه واصنامه على يد الاجنبي انتصاراً لضحاياه.

لنكن صريحين، ثمة شيء يوجع في مشاهد بعض "الجماهير" العراقية تهتف للمحتل. ليسوا كل العراقيين، نريد ان نقنع انفسنا، ولا ريب ان آخرين في بغداد كانوا في غمرة الحزن، ولا يزالون. ولكن حذار ان نكرر الخطأ الاول الذي جعل شعباً افتراضياً من نسج العواطف القومية المفقورة الى اي فكر يخفي من امام اعيننا تلاوين العراق، فامتألت شوارعنا بصور صدام حسين وذهب بعضنا في الدفاع عن شعب العراق الى حد تبجيل جلاده، وصار الجاهل الزاهي بجهله يعد نفسه داعية ثورة إن هو طرب لهتافات الشارع الممنوع من الثورة. حذار ان نحاكم العراقيين بدلاً من ادانة الطاغية الذي فتك بهم قبل ان تفتك آلة الحرب التي استدرجها، وحذار ان نستعجل مقاومتهم لها.

لأهل العراق حق في الراحة والسلام، ولا احد يحق له ان يعييه عليهم. ولنا جميعاً، خارج العراق، واجب الاعتاض. فليتعظ حكامنا اولاً، وكل العسس الذي حولهم. لا اصنام بعد اليوم، لا طاعة لمن لا يؤمن الا بالطاعة، ولا ألقاب خاوية. اصلاً، لن تثير عبارة "السيد الرئيس القائد" بعد الآن سوى الضحك في عروض الفكاهة "الصحافية". وليتعظ المثقفون ثانياً.

لا تخل عن الفكر النقدي بعد اليوم، ولا معارك بالوكالة، ولا حرية من دون احرار. فكيف يقاتل من اجلها شعب نسي مذاقها؟ اصلاً، ان كلمة "الشعب" نفسها لن تثير بعد الآن الا التشكيك اذا ظلت مفهوماً مجرداً. فالشعوب هي اكثر تنوعاً، والجماهير هي اقل ترصاً مما تدعي العقائد. وليتعظ المواطنون ايضاً.

لنتعظ جميعاً. لا اوهام خلاص بعد اليوم، ولا معجزات يصنعها العجز، ولا قائد ملهم يصادر الحرية، فلا يلبث ان يسرقها العدو ويجعلها سلاحاً له. هنا المهانة الاكبر، والمأساة الافح، والجرح الابلق، ان نعتبر انفسنا سقطنا في معركة كان فيها سلاح الديموقراطية في الصف المواجه لنا، في يد



رئيس اميركي اقل ما يقال فيه انه ليس مفعماً بالثقافة الديمقراطية. فهو الرئيس الاميركي الاول الذي لم ينتخب بنتيجة ديموقراطية انتخابية صحيحة، وهو الرئيس الذي لم يتوقف عن امتهان الديمقراطية سواء في العلاقات الدولية او في تنظيم حريات المجتمع الاميركي العريقة. لا احد يتوهم في ان جورج بوش الابن يريد حقاً احلال الديمقراطية في العالم العربي. ما يقصده بالديموقراطية هو الاذعان للنظام الامبراطوري الاميركي، بكل مفاهيمه، واولها هذا المفهوم الاختزالي لأزمات الشرق الأوسط الذي يدعي تفسيرها تحديداً بغياب الديمقراطية. فعند بوش اننا نقاتل اسرائيل (عندما نقاتلها) لاننا غير ديموقراطيين، ونرفض الهيمنة لاننا غير ديموقراطيين. يحق لبوش ان يقول اي شيء، ليس فقط لانه الاقوى، ولكن لأن جسمنا "البيس".

فمن يستطيع الانكار اننا نعيش في دول غير ديموقراطية، فضلاً عن كونها غير فاعلة. وكيف لنا ان نرد التهمة؟ لا سبيل في الحقيقة الى رد التهمة، وتالياً الى كشف الذريعة التي صارت تتلبس بها الهيمنة، الا بأن نصبح ديموقراطيين، لا مثل ما يريد بوش، بل مثل ما تريده مجتمعاتنا، بكل تلاوينها ومكوناتها.

فنسقط الاصنام قبل ان يأتي جيش اجنبي يسقطها، ونوقف النهب، بل نعيد توزيع الثروات التي احتكرتها عصابات السلطة، ونطلق العنان للحرية، ونستعيد الديمقراطية في العلاقات بين دولنا، فلا علاقات مميزة تكون قناعاً لهيمنة الكبير على الصغير، بل علاقات ممتازة من الند الى الند، من دون ان ننسى الديمقراطية الاقتصادية بين البلدان التي تعترف بعروة العروبة، فلا تكون ثروة العرب وفقاً على حفنة من الامراء اجلستهم الطبيعة على مواردنا. عندئذ، تصبح الحرية سلاحاً في ايدينا. عندئذ، لن تكون المقاومة مجرد عزاء.

سمير قصير



Id-Reference	03-Pr-000683	
Media	(Support)	HC
Title		الحرية سلاحاً
Subtitle		
Section		
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date		٢٠٠٣/٤/١١ 11/4/2003
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	صدام.حسين - جورج.بوش
	Locations	عراق - بغداد
	Dates	
	Themes	عراق - عرب - معسكر.اعتقال.صدام.حسين - عالم.عربي - أزمة.شرق.أوسط - بغداد - مقاومة.عراقية - حزب.بعث.عراقي - صدام.حسين - نظام.صدام.حسين - نظام.عراق - شعب.عراق - ديموقراطية - جورج.بوش.ابن -
Subject		